مقاربات الخطابات: نظريات أم نظرية؟

مقاربات سائدة ومقاربات للتمحيص

تمهيد

يرتكز نجاح التواصل على الأدوات التي يمتلكها كل من المخاطِب والمخاطَب، حيث الاشتراك في اللغة المستعملة بين طرفي التواصل، من الأمور الضرورية التي تؤدي إلى إنجاح التواصل، إلى جانب المعرفة الخلفية التي هي بمثابة "مقدّمات أولية في السيرورة الاستدلالية لتُكمّل التأويل اللساني" (التحليل النقدي للخطاب من تأويل الملفوظ إلى تأويل الخطاب، ص 255)، لأن تحديد الخطاب، كما سبق ذكره في الدروس السابقة، يقودنا حتما إلى تحديد العلاقات القائمة بينه وبين اللغة والمجتمع وكذا طريقة استعمال هذه اللغة كأداة للتواصل في المجتمع، فهدف الخطاب هو تحقيق التواصل بالدرجة الأولي.

تولد عن تصنيف الخطابات (الأنماط والأنواع) مقاربات خطابية التي تنقسم إلى مقاربات سائدة وأخرى تخضع للتمحيص، ماذا يقصد بمقاربات سائدة؟ ومقاربات للتمحيص؟

أولا: مقاربات سائدة: تعتمد هذه المقاربات ما أصطلح عليه بأطروحات تتمثل في: أطروحة الخاص للخاص، وأطروحة الخاص للعام، وأطروحة البعض للكل(أحمد المتوكل، 2010، ص 26)

1.1 الخاص للخاص: يرى الباحثون أنّ هذه الأطروحة يقصد بها أنّ" كل نمط خطابي يستدعي مقاربة تخصه دون غيره" و" كل نمط خطابي نظريته القائمة الذات" (نفسه، ص 27) حيث انطلاقا من هذه الأطروحة مثلا؛ يتماشى الخطاب الأدبي مع النظرية السيميائية والشعرية، ومع الخطاب السردي النظرية السردية أو السرديات، ومع الخطاب الحجاجي النظرية الحجاجية، ولكل هذه الدراسات زاوية خاصة بها لمعالجة وتحليل الخطاب بالتركيز على تمط خطابي بعينه، لكن لم تهتم بالقواسم المشتركة القائمة بين مختلف الأنماط، وهو الأمر الذي أُخذ على هذه الدراسات، ويذهب المتوكل إلى أنّ "هذه المؤاخذة سترتفع لو أن هذه المقاربات الموضعية عدّت "نظريات" فرعية لنظرية خطاب عامة تعلوها، نظرية لغوية أعم تستمد منها مبادئها ومنهجها" (المتوكل، ص 27).

2.1 الخاص للعام: اهتمت الدراسات التي انطلقت من أطروحة الخاص للعام من تعميم خصائص خطاب معيّن على خطابات بمختلف خصائصها؛ مثل الدراسات التي عالجت الخطاب الإيديولوجي والخطاب العلمي بمعالجة نفسها.

مقاربات الخطابات: نظريات أم نظرية؟

مقاربات سائدة ومقاربات للتمحيص

3.1 البعض للكل: تهتم المقاربة التي تعتمد هذه الأطروحة على فئة واحدة من خصائص الخطاب، فمثلا اهتمت الدراسات البنيوية، كما سبق ذكره في المحاضرات السابقة، على الجانب الشكلي القائم على نظام من الوحدات اللغوية داخل نسق مغلق(البنية)(المستويات الأربعة: الصوتي، الصرفي، التركيبي، المعجمي)، ولم تنظر إلى التفاعل القائم بين الجانب الشكلي والخصائص الدلالية والتداولية. وفي مقابل ذلك أغنت المقاربات التداولية الدرس اللغوي " بمفاهيم مستقاة من "فلسفة اللغة العادية" لكنها، على أهميتها وبالرغم من عمق وورود ما اقترحته من تحليل للخطاب الطبيعي، لم ترق، نظرا لخصوصية موضوعها، إلى أن تُعدّ نظرية لسانية متكاملة شاملة" (نفسه، ص 28).

وتبقى المقاربة التداولية من المقاربات الأساسية والمهمة في بناء نظريات لسانية مؤسسة تداوليا ووظيفيا مثل(نظرية النحو الوظيفي).

ثانيا. مقاربة للتمحيص، وهي المقاربة التي تعتمد على أطروحة العام للخاص، تتلخص معالمها الكبرى في:

– **خصائص الخطاب الطبيعي:** وظيفية تداولية ودلالية التي تتعالق كلها مع الخصائص الصورية الصرفية التركيبية والفونولوجية؛ وعليه " يتحتم على المقاربة التي تستشرف إحراز الكفايتين الوصفية والتفسيرية أن ترصد لكلا الفئتين من الخصائص دون إغفال أيّ منهما وأن تقيم وصفها وتفسيرها لهذه الخصائص على أساس تحكّم الوظيفة في البنية" (نفسه، ص 29)

– **مقاربة أنماط الخطاب:** التي تقتضي نظرية عامة حيث تتقاسم مختلف الأنماط الخطابية خصائص الخطاب الطبيعي

– **القدرة اللغوية:** تعدّ القدرة الخطابية، باعتبارها عملية إنتاج وتأويل مختلف أنماط الخطاب من قبل المستعمل، جزءا من القدرة اللغوية العامة التي تتجسد في عملية استعمال اللغة من قبل المتحدث الذي يعرف نسق لغته العام.

ثالثا: مقاربات التحليل النقدي للخطاب: تقوم مقاربات التحليل النقدي على نظريات لسانية متنوعة (اللسانيات الاجتماعية واللسانيات الوظيفية واللسانيات المعرفية واللسانيات التداولية) بالإضافة إلى النظريات الاجتماعية والنقدية لفوكو وبورديو وهابرماس وغرامشي وساكس وكارل ماركس (كريم صالح، 2022، ص 130)

مقاربات الخطابات: نظريات أم نظرية؟

مقاربات سائدة ومقاربات للتمحيص

ويعتمد التحليل النقدي للخطاب على ثلاث مقاربات أساسية هي:

1.3 **المقاربة الجدلية ـ العلائقية (نورمان فيركلف Norman Fairclough)**، تنطلق هذه المقاربة من تساؤل اجتماعي وأخلاقي من أجل تحقيق قيّم العدالة، حيث يصفها " فيركلف" أنّها" علم الاجتماع الذي يحرّكه السعي لتوفير أساس علميّ للتساؤل النقدي حول الحياة الاجتماعية من منطلقات أخلاقية وسياسية، أي بالنظر إلى العدالة الاجتماعية والسّلطة" (نفسه، ص 131) لأن الخطاب كممارسة يقع تحت سيطرة العلاقة الجدلية القائمة بين الأبنية الاجتماعية (السّلطة المؤسسات، والمعتقدات، والقيّم الثقافية.

يحتل الجانب اللساني المركز الأساسي في هذه المقاربة، لأن تحليل النّص، كما سبق ذكره في الدرس السابق، يعدّ جزءا أساسيا من تحليل الخطاب (علاقة الاحتواء)، ولتحليل الخطاب" أبعدٌ ثلاث. فأية (حادثة) حالة خطابية (أي حالة من حالات الخطاب) ينظر إليها باعتبارها. في الوقت نفسه ـ قطعة نصّية، وحالة ممارسة اجتماعية. فأمّا البعد النّصي فيبتدئ في التحليل اللغوي للنّص، ,أمّا بعد (الممارسة الخطابية)، مثل (التفاعل) في صوّرة الخطاب باعتباره نصًّا وتفاعلا، فيحدّد عمليتي إنتاج النّص وتفسيره، مثل تحديد أنواع الخطاب (بما في ذلك أنواع الخطاب بالمعنى الاجتماعي النّظريّ) التي يُستمد منها وكيف تجتمع معا فيها، وأمّا بعد (الممارسة الاجتماعية) فيعالج القضايا المهمة في التحليل الاجتماعي مثل الظروف المؤسسية والتنظيمية للحادثة الخطابية وكيف يشكّل ذلك طبيعة الممارسة الخطابية والآثار التشكيلية/ البنائية للخطاب)" (نفسه، ص 132) ، ويقصد بالممارسة الاجتماعية كل نشاط اجتماعي يمتاز بالثبات نسبيا مثل (الاجتماعات العائلية، الاستشارات الطبية، ...)؛ حيث تتكون كل ممارسة اجتماعية وفق إطار نشاطها، من " الأنشطة وعلاقاتها الاجتماعية، الأدوات، الموجودات، أشكال الوعي، القيّم، الخطاب" (نفسه، ص 133) .

يرتكز هذا التحليل على ثلاث مستويات أساسية تتمثل في: "تحليل النّص، وتحليل الممارسات الخطابية (الإنتاج والتوزيع، والاستهلاك)، وتحليل الممارسة الاجتماعية" (نفسه، ص نفسها)؛ أي الوصف (البناء الشكلي)، والتفسير (إنتاج النّص وتفسير علاقته بالتفاعل)، ثم الشرح (الأثر الاجتماعي الحاصل في عمليتي الإنتاج والتفسير؛ أي العلاقة الناتجة عن التفاعل والسياق الاجتماعي).

2.3 المقاربة المعرفية الاجتماعية (تون فان دايك): الخطاب عند (فان دايك) "ظاهرة اجتماعية متعددة الأبعاد، ...، فهو شكل لغوي (لفظي ونحوي) ذو معنىً، وحدث تواصلي ونشاط تفاعلي اجتماعيين، وتمثيل معرفي، وممارسة اجتماعية، ونتاج ثقافي، وسلعة اقتصادية، بل أكثر من هذا"(مناهج التحليل النقدي) روث فوداك وميشل مايير، تر: حسام أحمد فرج، عزة شبل، 2014، نقلا (كريم صالح محسن، 2022، ص 142)

ويرى فان دايك أن البنى الاجتماعية المختلفة أمر أساسي لمحل الخطاب لأنّه يقوم بإعادة الإنتاج الخطابي لهذه البنى، يربط فان دايك بين الخطاب والمجتمع والمعرفة والإدراك في تحليل الخطاب؛ حيث تتمثل المعرفة الإدراكية من جهة في مواقف وأحداث وأهداف شخصية، وفي معارف اجتماعية وإيديولوجية من جهة أخرى؛ أي يركّز فان دايك في الخطاب على تحليل "العلاقات بين العقل والتفاعل الخطابي والمجتمع"(نفسه، ص 143)

كما يؤدي الجانب اللغوي دورا مهما في المقاربة المعرفية الاجتماعية، إذ يتم، من خلال الاستراتيجيات التي يتخذها المحلل في تحليل الوظائف اللفظية والتركيبية للنّص، التعامل مع النّص نحويا أو تداوليا أو حجاجيا أو بلاغيا...دون إهمال عنصر السياق كونه عنصرا فعّالا في إيصال الرسالة وفهمها.

3.3 المقاربة التاريخية (روث ووداك) (Ruth Wodak)، تنظر روث إلى الخطاب على أنّه " رزمة مركّبة من أفعال لسانية مترابطة على نحو متسلسل ومتزامن"(نفسه، ص148)

لقد اعتنت هذه المقاربة بـ (النقد، والايديولوجيا، والسلطة، والتاريخ) وقد انصب اهتمام النظرية النقدية على الاتجاهات الآتية:

– النقد الخطابي: البحث في التناقضات والتجاوزات، والعمل على تحديد الجوانب السلبية في البنية الداخلية (النّص أو الخطاب)

– النقد التشخيصي الاجتماعي: الاعتماد على السياق والنظريات الاجتماعية والجانب المعرفي الإدراكي من أجل توظيف ممارسة خطابية تؤدي إلى تأويل الأحداث الخطابية.

– النقد التطلعي: الاستعمال الحسن للغة، مثل تحسيت الاتصال في المدارس والمستشفيات ويتمثل العامل الإيديولوجي في تمثيلات ذهنية ومعتقدات وسلوكيات مشتركة بين أفراد مجتمع معيّن، وهي عناصر تتحكم في عملية التواصل.

وتظهر السلطة في كيفية استعمال اللغة من أجل التحكم في إنتاج الخطاب، وتحديد نوعه والمشاركين فيه، يمكن أن يظهر ذلك على شكل أفعال مثلا في الخطاب السياسي والإعلامي والعلمي.

أما عامل التاريخ، الذي يعد عنصرا رئيسا في التحليل، فهو، حسب ووداك، يرتبط مفهومه بالتفكير الماركسي وفلسفة فوكو، لأنه لا يمكن تجريد الخطاب من سياقه التاريخي، وعليه ينبغي دراسته في وقت إنتاجه.